تجلِّيات نسق الفحولة المضمر في الشعر السياسي الأموي "شعر السُّلطة نموذجًا"

د/ حمدي عقيلة عبد المنعم

يُعدّ نسق (الفحولة) أحد الأنساق الثقافية التي طغى حضورها على نصوص الشعر السياسي الأموي، ولعلَّ ذلك يرجع إلى صراع الأحزاب السياسية في ذلك العصر، وتنازعها على السُّلطة؛ فلقد حفل العصر الأموي باعتراكٍ سياسي كبير حول مسألة الخلافة، وتنازعٍ بين فرقٍ وأحزابٍ كثيرة؛ كل منها يرى في نفسه أحقيَّته بالخلافة والحكم، ولذا عوَّل كل حزبٍ من هذه الأحزاب المُتصارعة على تبنِّي هذا النسق، من أجل إثبات أحقيَّته في تولِّي السُّلطة والخلافة.

وقد أخذ كل حزب من هذه الأحزاب السياسية يُجنِّد له شعراء يروجون له، وينافحون عنه، ويناضلون عن نظريته السياسية.ويتخذ هذا البحث متنًا للدراسة، شعر الحزب/السُّلطة الأموية نموذجًا، فبعد أن تولَّى الأمويون الخلافة، أخذ العديد من الشعراء يلتفون حولهم،ويقفون في صفوفهم، مدافعين عن نظريتهم، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم.فها هو الشاعر "عَدِيُّ بْنُ الرِّقَاعِ العَامِلِيّ"، الشاعر الذي عُرِفَ بولائه للأمويين، والذي كان –وفقًا لما نقله الدكتور شوقي ضيف عن صاحب الأغاني– مُقدَّمًا عند بني أُميَّة، مادحًا لهم، خاصًا منهم بالوليد بن عبد الملك[1]، نراه يحاول إثبات خلافة "الوليد بن عبد الملك"، فراح يحشد له كل السِّمات التي تثبت فحولته، فيذكر أنه أجدر الناس بالخلافة، لأنه خير الناس وأقواهم تديُّنًا، وهو مُرٌّ في عداوته، وهو الذي يرعى المسلمين بعد الله تعالى، ولذا فإن طاعته طاعة لله، وعصيانه عصيان له تعالى، وهو معروف بكرمه وعطائه المستفيض، فالله تعالى أرسله إلى الناس، كالغيث الذي يرسله تعالى ليحيي به الأرض. يقول يقول عدي بن الرقاع[2]:

رَأى الوَلِيْـــدُ لَهَـــا أَهْـــلاً فَمَلَّكَـــهُ ... وَاخْتَـــارَ مِنَّـــا الَّـــذْي يَرْضَـــى وَأَرْضَـــانَا

فَالحَمْـــــدُ للهِ إِذْ وَلّـــــى خِلَافَتَنَـــــا ... وَأَمْرَنَـــــا خَيْرَنَـــــا دِيْنًـــــا وَأَقْوَانَـــــا

مُـــرَّ العـــداوَةِ يَشْـــقَى الكَاشِـــحُونَ بِـــهِ ... حُلـــوًا إِذا لَـــمْ تَرِبْـــهُ ريْبَـــةٌ لَانَـــا

نَحْـــنُ الرَعِيَّـــةُ وَالـــرَحمَنُ يَحفَظُنَـــا ... وَأَنْـــتَ فِـــي الأَرْضِ بَعْـــدَ اللهِ تَرعانَـــا

يَـــــرَونَ طاعَتَـــــهُ للهِ رَبَّهُـــــم ... رِضـــــىً وَعِصْـــــيَانَهُ للهِ عِصْـــــيَانَا

فَأَنْتَ غَيْثٌ بإِذْنِ اللهِ أَرْسَلَهُ لِلمُسْلِمِيْنَ حَيًا وَالأَرضِ عُمْرَانَا

وبإنعام النظر في النص، نجده يحتوي على نسقين: أحدهما ظاهر، ويتمثل في نسق المبالغات التي أضفاها الشاعر على الخليفة (خَيْرَنَا دِيْنًا- أَقْوَانَا- يَشْقَى الكَاشِحُونَ بِهِ- طَاعَتَهُ للهِ رِضىً- عِصْيَانَهُ للهِ عِصْيَانَا- غَيْثٌ... لِلمُسْلِمِيْنَ- وَللأَرضِ عُمْرَانَا)، فهذه المبالغات التي أضفاها الشاعر على الخليفة، من وجهة نظر النقد التقليدي/الجمالي، ليست إلا مبالغات شعرية، أكسبت النص قيمة أدبية وأظهرته في مظهر بلاغي جميل، لكن هذه المبالغات الشعرية تُعدّ-وفقًا للقراءة الثقافية- نسقًا ظاهرًا، فهي ليست إلا ستار اسْتُخْدِمَ لإخفاء نسق آخر مهيمن على النص، وهو نسق الفحولة المضمر. ويمكن الكشف عن هذا المضمر النسقي من خلال مساءلة جماليات النص التي أسهمت في إخفائه، ومن ثَمَّ تمريره، ففي قول الشاعر: (الحَمدُ للهِ إِذ وَلّى خِلافَتَنَا)، تكمن الدلالة النسقية، لأن هذه الجملةإيماء إلى نسق الفحولة الذي يشير به الشاعر إلى ذات الخليفة، فالخليفة هو المصطفى والمُوَلَّى من عند الله تعالى لخلافته في الأرض، والشاعر إنما يشير من خلال هذه الجملة إلى أهم سمات الفحولة التي وضعتها الذات الأموية المتمثلة في الاصطفاء/التفويض الإلهيللخليفة، كما يمكن استجلاء الدلالة النسقية من خلال قول الشاعر: (مُرَّ العداوَةِ) أي أن الخليفة مُرٌّ، شديدٌ في عداوته، فلا يستطيع أحدٌ معاداته، وفي هذه الجملة أيضًا إيماء إلى نسق الفحولة الذي يشير به الشاعر إلى الخليفة، لأن الشاعر بهذه الجملة يجعل من ممدوحه/الخليفة رجلاً خارقًا، قويًا، شديد المراس، لا يمكن لأحدٍ معاداته، وقد"غذَّتنا الثقافة بصورة الفحل الشعري الذي عداوته بئس المقتفى...وكلها صيغ للفحل المطلق وللأنا المستبدَّة كما أسسها النموذج الشعري، وحرستها المؤسسة الثقافية المحامية عن السلطة الشعرية، وهذا ما جعلها نسقًا ثقافيًا مضمرًا في مطاوي الوجدان العام"[3]. ثم يقع الشاعر تحت سُلطة النسق، فتجعله لا يرى سوى الله تعالى في السماء والخليفة في الأرض، حينما يقول: (وَأَنتَ في الأَرضِ بَعْدَ اللهِ تَرعانَا)، وليس هذا وحسب، بل إن طاعة الخليفة هي طاعة لله تعالى، وعصيانه عصيان له عزَّ وجلَّ (طاعَتَهُ للهِ رِضىً، وَعِصْيَانَهُ للهِ عِصْيَانَا). فالنص إذن يعكس ظاهره نسقًا يتمثل في مجموعة من القيم والمبالغات الشعرية التي أضفت على النص رونقًا، وأظهرته في صورة بلاغية جميلة، لكن باطن النص يكنز مضمرًا نسقيًا، يجعل من الخليفة ذاتًا خارقة متعالية، لا مكان فيها للآخر، بل لا يمكن للآخر مُعاداة هذه الذات الخارقة، وهذا الأخير – أي النسق المضمر- هو الذي منح النص قيمته الثقافية.

إن وقوع الشاعر تحت سُلطة النسق، هو ما جعله يرى الوليد خير المسلمين تدينًا، وأقواهم، بل إن رضا الوليد من رضا الله تعالى، وعصيانه عصيان له عزَّ وجلَّ، فالشاعر بهذا الوصف إنما يُناقض الواقع ويُزيّف الحقائق، أليس الوليد بن عبد الملك هو من قال عنه

المسعودي: إنه "كان جبارًا عنيدًا ظلومًا غشومًا"[4]. وهو أيضًا الذي امتلأت في عهده الأرض ظلمًا وجورًا[5]، إذن كيف يكون الوليد خير المسلمين دينًا؟! إنها قداسة النسق وسُلطته التي طغت على الشاعر، فجعلته يَقْلِبُ الواقعَ، وَيُزَيِّفُ الحقائقَ، ويُخَالِفُ ما يؤمن به عقله، "وإلا ما الذي يدفع شخصًا مؤمنًا لأن يكذب على دينه، لولا طغيان النسقية ووقوع الشخص في عمى ثقافي يسيطر على تصوّره للكون والعالم"[6].

كما يحاول عدي بن الرقاع، أن يرسم للوليد بن عبد الملك نسقًا مبنيًا على ثقافة الفحولة، فإذا به يقول[7]:

صَـلَّى الَّـذِي الصَّـلَوَاتُ الطَّيِّبَـاتُ لَـهُ ... والمُؤْمِنُـونَ إذَا مَـا أَجْمَعُـوا الجُمَعَـا
عَلَـى الَّـذِي يَسْـبِقَ الأَقْـوَامَ ضَـاحِيَةً ... بِـالأَجْرِ والحَمْـدِ حَتَّـى صَـاحَبَاهُ مَعَـا
هُـوَ الَّـذِي جَمَـعَ الرَّحْمَـنُ أُمَّتَـهُ ... عَلَـى يَدَيْـهِ وَكَانُـوا قَبْلَـهُ شِيعَـا
عُـذْنَا بِـذِي الْعَـرْشِ أَنْ نَحْيَـا وَنَفْقِـدَهُ ... وَأَنْ نَكُـونَ لِـرَاعٍ بَعْـدَهُ تَبَعَـا
إنَّ الْوَلِيْـدَ أَمَيْـرَ المـؤمِنِيْنَ لَـهُ ... خلْـقٌ أَعَـانَ عَلَيْـهِ اللهُ فَارْتَفَعَـا
لَا يَمْنَـعُ النَّـاسَ مَـا أَعْطَـى الَّـذِيْنَ هُـمُ ... لَـهُ عِبَـادٌ وَلَا يَعْطُـونَ مَـا مَنَعَـا
إنَّ الْمُلُـوكَ وَمَـا بِـي أَنْ أَعِيْـبَهُمُ ... لَـنْ يَجْمَعُوا مِـنْ عَـوَالِيَ الأَمْـرِ مَـا جَمَعَا
لَا مُقْـدَمٌ كَـانَ إلَّا دُونَ مُقْدَمِـهِ ... وَلَا الْمَنَـافِعَ إلَّا دُونَ مَـا نَفَعَـا
فَـلَا جَـوَادٌ مِـنْ الأَقْـوَامِ يَعْدِلُـهُ ... فِـي الْوَضْـعِ وَهُـوَ أَحَـقُّ النَّـاسِ أَنْ يَسَـعَا
وَلَا أَرَبٌ لِنِعْمَـى حِـيْنَ يُنْعِمُنَـا ... حَتَّـى يُـتَمِمَ أَوْ يُعْطِـي بِهَـا القَنَعَـا
فَـأَظْهَرَ اللهُ نَصْـرَ المُسْـلِمِيْنَ بِـهِ ... وكُـلُّ فَاحِشَـةٍ عَـنْ دِيْـنِهِمِ دَفَعَـا
وَعَلَّـقَ اللهُ أَسْـبَابَ الأُمُـورَ بِـهِ ... وَلَـمْ يُطِـقْ حَامِـلٌ فَـوقَ الَّـذِي اِضْـطَلَعَا

وبإنعام النظر في هذه الأبيات السابقة، نجدها تحمل في باطنها مضمرًا نسقيًا قائمًا على ثقافة الفحولة، ويمكن الكشف عن هذا المضمر النسقي الذي يطغى حضوره على فضاء النص، ويتمثَّل هذا الحضور في تلك الصفات والمناقب التي راح الشاعر يُكرسها لذات الخليفة عبر هذه الجمل (الَّذِي سَبَقَ الأَقْوَامَ ضَاحِيَةً- هُـوَ الَّذِي جَمَـعَ الرَّحْمَـنُ أُمَّتَهُ- لَا يَمْنَعُ النَّاسَ مَا أَعْطَى- لَا يَعْطُونَ مَا مَنَعَا- إنَّ الْمُلُوكَ...لَنْ يَجْمَعُوا مِنْ عَوَالِي الأَمْرِ مَا جَمَعَا- لا مُقْدَمٌ كَانَ إلَّا دُونَ مُقْدَمِهِ- لَا الْمَنَافِعَ إلَّا دُونَ مَا نَفَعا- لَا جَوَادٌ مِنْ الأَقْوَامِ يَعْدِلُهُ- لَا أَرَبٌ لِنِعْمَى حِيْنَ يُنْعِمُنَا-

أظْهَرَ اللهُ نَصْرَ المُسْلميْنَ بِهِ- وَعَلَّقَ اللهُ أَسْبَابَ الأُمُورَ بِهِ) فلقد عمد الشاعر إلى تكريس كل هذه الصفات والمناقب من أجل ترقية ذات الخليفة، وجعلها ذاتًا مُتفرِّدة، متعالية على الجميع، وحِرْصُ الشاعر على ترقية ذات ممدوحه، وجعلها ذاتًا متعالية فوق ذوات الآخرين، وجعل الآخرين مجرد تابعين لهذه الذات المتعاظمة المتعالية، هو أحد وجوه الصناعة الثقافية، ففي ثقافة النسق "لا وجود لذلك الشاعر الذي يرى للآخرين موقعًا مقاربًا له، هذا إن كان يعتبر نفسه فحلاً، ولن تضعه الثقافة في مرتبة الفحولة إلا بعد أن يثبت مقدرته على إسكات أي صوت سواه، فالآخرون زعنفة لا تجوز لدى عرب ولدى عجم...والآخر لابد أن يكون تابعًا ومنقادًا انقيادًا مطلقًا، ولذا لابد من تحويل الجميع إلى قطيع من الأتباع"[8]. فهذه إذن ثقافة النسق التي تجعل من الذات مركزًا للعالم، ولا مكان فيها للآخرين. كما تتجلَّى الدلالة النسقية أيضًا في البيت الرابع، وذلك عندما يدعو الشاعرُ الله على لسان المسلمين أن يُثبِّت ملك الخليفة طيلة حياتهم، لأنهم لا يرضون بغيره راعٍ لهم، ولا غرابة في ذلك، أليس الخليفة المصطفى من عند الله تعالى وهو الذي جمع الله عزَّ وجلَّ الأمةَ على يديه من التفرقةّ؟! فأي فحولة بعد ذلك، عندما تجتمع الأمة على راعٍ واحدٍ لهم، لا يرضون بأحدٍ سواه!

ثم يحاول الشاعر أن يحيط ذات الخليفة بهالة من القداسة، عبر عدّة جمل ثقافية كقوله: (لا الْمَنَافَعَ إِلَّا دُونَ مَا نَفَعا) و (لَا أَرَبٌ لنِعْمَى حِيْنَ يُنْعِمُنَا) و (لَا يَمْنَعُ النَّاسَ مَا أَعْطَى) و(لَا يَعْطُونَ مَا مَنَعَا)، فهذه الجمل البلاغية ذات الوجه الجميل البرَّاق، أضفت على النص قيمةً أدبية ولغوية، وأظهرته في صورة فنية جميلة، لكن هذا الوجه الجميل البرَّاق هو بمثابة قناع يخفي وراءه شيئًا مضمرًا قبيحًا، ويتمثل هذا المضمر في نسق الفحولة الذي يشير به الشاعر إلى ذات الخليفة، فالخليفة هو الذي يعطِي ويَمْنَع، وهو الذي يُنْعِمُ وينفع، وهذه محاكاة لرمزية الملك الذي كان يحظى –قديمًا– بقدسيته وأُلوهيته، فمن مظاهر تقديس الجاهليين للملوك أنهم كانوا يطلقون على الملك اسم (الرَّب)، وكانوا ينادونه بـ(أَبَيْتَ اللعن)[9]، كما كان العرب قديمًا يخاطبون ملوكهم بأرباب، والرب مالك كل شيء[10]. فإذا كان الخليفة هو (الَّذِي جَمَـعَ الرَّحْمَـنُ أُمَّتَهُ)، وهو الذي (أَظْهَرَ اللهُ نَصْرَ المُسْلميْنَ بِهِ)، وهو الذي (عَلَّقَ اللهُ أَسْبَابَ الأُمُورَ بِهِ)، فلا عجب –إذن– حين يسأل الوليد بن عبد الملك في عجبٍ "أَيُحَاسَبُ الخليفة؟!"[11]. ولا عجب أيضًا حينما يأتي الخليفة "يزيد بن عبد الملك" بأربعين شيخًا، فيشهدوا له أن ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب[12].

ثم يأتي الشاعر "نابغة بني شيبان"، وهو أيضًا أحد شعراء السلطة الأموية، وكان منقطعًا بشعره إلى الحكام الأُمويين لاسيما عبد الملك بن مروان، وكان دائمًا يلهج ببني أُميَّة ويقف في صفوفهم[13]، نراه –في إحدى قصائده– يدافع عن الخليفة "عبد الملك بن مروان"، محاولاً إثبات أحقيته بالخلافة، فراح يرسم له نسقًا مبنيًا على ثقافة الفحولة، فإذا به يقول[14]:

حَكَمِيًـــا بَـــيْنَ الأَعَاصِـــي وَحَـــرْبٍ أَبطحِـــــي الأَعْمَـــــامِ وَالأَخْـــــوَالِ
أُمُّـــــهُ مَلكَـــــةٌ نَمَتْهَـــا مُلُـــوكٌ وَهـــي أَهْـــلُ الإِكْـــرَامِ والإِجْـــلَالِ
وَأَبُـــوهُ عَبْـــدَ المَلِيْـــكِ نَمَـــاهُ زَادَ طُـــولاً عَلَـــى المُلُـــوكِ الطِّـــوَالِ
فَهْـــوَ مَلـــكٌ نَمَتْـــهُ أَيْضًـــا مُلـــوكٌ خَيْـــرُ مَـــنْ يَحْتَـــذِي رِقَـــاقِ النِّعَـــالِ
أَريحيّـــا فرْعًـــا وَمَعْقِـــلَ عِـــزٍّ قَصُـــرَتْ دُونَـــهُ طِـــوَالُ الجِّبَـــالِ
أُعْطِـــيَ الحِلْـــمَ وَالعَفَـــافَ مَـــعَ الجُـــو دِ وَرَأيًـــا يَفُـــوقُ رَأيَ الرِّجَـــالِ
وَحَبَـــاهُ المَلِيْـــكُ تَقْـــوى وَبِـــرًّا وَهُـــوَ مِـــنْ سُـــوسِ نَاسِـــكٍ وَصَّـــالِ
يَقْطَـــعُ الليْـــلَ آهَـــةً وَانْتِحَابًـــا وَابْتِهَـــالاً للّـــهِ أيَّ ابْتِهَـــالِ
تَـــارَةً رَاكِعًـــا وَطَـــوْرًا ســـجُودًا ذَا دمُـــوعٍ تَنْهـــلُّ أَيَّ انْهِـــلَالِ
عَـــادِلٌ مُقْسِـــطٌ وَمِيْـــزَانُ حَـــقٍّ لَـــمْ يَحِـــفْ فِـــي قَضَـــائِهِ للمَـــوَالي
مُحْسِـــنٌ مُجْمِـــلٌ تَقِـــيٌّ قَـــوِيٌّ وَهُـــوَ أَهْـــلُ الإِحْسَـــانِ والإِجْمَـــالِ

وبإنعام النظر إلى النص، نجده يشتمل على نسقين متناقضين: أحدهما ظاهر في النص، ويتمثل هذا النسق في مزج المعاني الدينية بغرض المديح، مما أضفى على النص وأكسبه قيمة بلاغية وجمالية. لكن هذا النسق المُعلن في الخطاب ليس إلا قناع يواري خلفه نسقًا آخرًا خفيًّا، ويتمثل هذا النسق الخفي، الذي يطغى على البنية العميقة للنصفي ثقافة الفحولة. فالنسق الديني المُعلن في الخطاب، والذي تُمثّله المعاني الدينية (حباهُ المَليكُ تقوًى وبِرًّا- يقطعُ الليلَ آهَةً وانْتِحابًا- تارةً راكعًا- طورًا سجودًا- ابْتهالاً للّهِ أيَّ ابْتهالِ- عادِلٌ مُقْسِطٌ- ميزانُ حَقٍّ- لَمْ يحف في قضائهِ- مُحْسِنٌ تَقِيٌّ- هُوَ أهلُ الإحسانِ)، ما هو إلا تمويه وتعمية عن نسق الفحولة المضمر، وهو ما كشفت عنه هذه الجمل (زَادَ طُولاً عَلَى المُلُوكِ الطِّوَالِ- خَيْرُ مَنْ يَحْتَذِي رِقَاقِ النِّعَالِ- قَصُرَتْ دُونَهُ طِوَالُ الجِّبَالِ- رَأيًا يَفُوقُ رَأيَ الرِّجَالِ)، فهذه الجمل أعطت النص دلالة أخرى بعيدة عن الدلالة الدينية الظاهرة، إنها الدلالة النسقية التي أكسبت النص قيمته الثقافية. وهذه الدلالة تؤسس لنسق مضمر خفي، يصنع من الخليفة ذاتًا متعاظمة متعالية، لا على الملوك وحدهم، أو على البشر، بل وعلى الجبال (قَصُرَتْ دونَهُ طِوالُ الجِبالِ)، إنها ذات خارقة، تجمع (الحلم، والعفاف، والجود، والحُسن، والجمال). فظاهر النص -إذن- يجعل من الخليفة الرجل العابد، التقي، العادل، المقسط، الذي تنهمر دموعه من خشية الله تعالى، وتراه تارة راكعًا وأخرى ساجدًا. بينما مضمر النص وباطنه، يصنع من الخليفة رجلاً خارقًا، فحلاً، مُستبدًّا،

متعاليًا على كل شيء، لا على البشر وحسب، بل حتى على الجماد. ويعد هذا الأمر أحد وجوه الصناعة الثقافية، فقد غذَّتنا الثقافة بصورة "الأنا المتضخمة الفحولية، التي لا تقوم إلا عبر التفرُّد المطلق بإلغاء الآخر، وبتعاليها الكوني...والعالم محتاج إليها، ولا يستقر وجودها إلا بسحقّ الخصم، وهو الصوت المفرد الذي لا صوت سواه"[15]. فالنسق المُعلن في الخطاب –والمتمثل في مزج المعاني الدينية بغرض المديح– ما هو إلا ستار، استُخْدِمَ لإخفاء وتمرير نسق آخر مضمر (النسق الفحولي). أو بعبارة أخرى: استخدم الشاعر المُقدَّس (النسق الديني الظاهر) كوسيلة لتمرير المُدنَّس (النسق الفحولي المضمر)، وهذا الأخير هو الذي منح الخطاب قيمة ثقافية.

كما يحاول "نابغة بني شيبان" في خطابه للوليد بن عبد الملك أن يجعل منه الرجل الخليفة القوي، فراح يريم له نسقًا مبنيًا على ثقافة الفحولة، فيقول[16]:

مَلِكًـــا هُمَامًـــا يُحِيْـــلُ الأَمْـــرَ جَائِلَـــهُ ... إِذَا تَحَيَّـــرَ عِنْـــدَ الخُطَّـــةِ الهَـــوِسُ

دَانْـــتْ لَـــهُ عَـــرَبُ الآفَـــاقِ خَشْـــيَتَهُ ... وَالـــرُّومُ دَانْـــتَ لَـــهُ جَمْعَـــاءُ وَالفُـــرُسُ

خَـــافَوا كَتَائِـــبَ غُلْبًـــا أَنْ تُطِيْـــفَ بهـــم ... للسَّـــابِغَاتِ عَلَـــى أَبْطَالِهَـــا جَـــرَسُ

وبإنعام النظر إلى النص، نجده يضمر في بنيته العميقة نسقًا ثقافيًا، قائمًا على ثقافة الفحولة والطغيان، والذي يشير به الشاعر إلى ذات الخليفة، فالشاعر يحاول أن يجعل من الخليفة رجلاً قويًا، حازمًا، لا يعرف الحيرة والتردد، فهو (ملكٌ هُمامٌ) و (يُحِيْلُ الأَمْرَ جَائِلَهُ)، إنه رجل قوي مستبدّ، أخضع الجميعَ له، فلقد (دَانْتْ لَهُ عَرَبُ الآفَاقِ) و (الفُرُسُ) و (الرُّومُ)، فوقوع الشاعر تحت سُلطة النسق، هو ما جعله يرتقي بذات الخليفة، ويصنع منها ذاتًا متعاظمة ومتعالية فوق ذوات الآخرين، إنه بطل شديد خارق، أخضع لسُلطته البشرية جمعاء: عربها، وفرسها، ورومها. كما يمكن استنكاه الدلالة النسقية أيضًا من خلال النسق الظاهر الذي تُشكِّله اللغة، فتكرار الشاعر للفعل (دَانَتْ) الدال على الخضوع والاستسلام، ثم اتباعه بفعل الخوف (خَافَوا)، والذي يؤكد أيضًا على معنى الخوف والخضوع، إنما يكشف أيضًا عن عجز فكر الشاعر أمام تسلُّط نسقي قار في لاوعيه، يهدف إلى جعل الآخرين مجرد خاضعين وتابعين لذات الخليفة/الفحل، وجعل الآخرين مجرد تابعين لهذه الذات المتعاظمة، يُعدّ–كما أشرنا سابقًا– أحد وجوه الصناعة الثقافية. فليس النص في ظاهره سوى مجموعة مبالغات شعرية، أضفت على النص رونقًا وجمالاً، وأظهرته في صورة بلاغية جميلة، لكنه بنسقه المُضمر الخفي، يصنع من الخليفة الرجل القوي، الأوحد، الطاغية، فحل الفحول.

ومن شعراء الحزب الأموي أيضًا نذكر الشاعر "الأحوص"، وهو أحد الشعراء الذين عدَّهم الدكتور شوقي ضيف من شعراء السياسة التابعين للحزب الأموي، وإن لم ينقطع لهم بجلّ شعره، لكنه كان يدافع عن نظريتهم السياسية ويمدحهم بين الحين والآخر، وكان يرى أن الأمة لا تصلح إلا عليهم[17]، ويذكر محقق ديوانه قائلاً: "لا أغالي كثيرًا إن قلت: إن هذه الكلمات (شاعر بني أُميَّة) لا تنطبق على شاعر مثلما تنطبق على الأحوص؛ فقد وقف شعره على بني أُميَّة لا يعدوهم"[18]، نراه في أحد خطاباته لهم، يحاول أن ينتصر لهم ويثبت أحقيتهم بالخلافة دون غيرهم؛ فراح يرسم لهم نسقًا مبنيًا على ثقافة الفحولة، فيذهب إلى أن هؤلاء القوم هم أهل المجد والرفعة، وهم أصحاب السلطة والنفوذ، وهذا المجد ضارب بجذوره في التاريخ، وهو ليس بجديد عليهم، وإنما ملازم لهم من أول الدهر بلا انتهاء، نظرًا لعراقة نسبهم، فيكفي عقبهم أن يكونوا من نسلهم ليحققوا المجد. وهم المانعون فلا يسطاع ما منعوا، وهم الذين ينجزون بما قالوا ويوفون بما عاهدوا، وهم أصحاب القول الفيصل، إذا تحدثوا فلا حديث بعد حديثهم، أصحاب الأفعال الحميدة. فإذا كان هؤلاء القوم يمتلكون كل هذه الصفات إضافة إلى رفعة حسبهم ونسبهم، فلا عجب أن يكونوا خير سكان هذه الأرض. يقول الأحوص[19]:

قَـــوْمٌ وِلاَدَتُهُـــمْ مَجْـــدٌ، يُنَـــالُ بِهَـــا، مـــنْ معشـــرٍ ذكـــروا فـــي مجـــدِ مـــنْ ولـــدو
الأَكْرَمُـــونَ طَـــوَالَ الـــدَّهْرِ إِنْ نُسِـــبُوا والمُجْتَـــــدُونَ إذا لا يجتـــــدي أحـــــدُ
وَالمَـــانِعُونَ فَـــلاَ يُسْـــطَاعُ مَـــا مَنَعُـــوا وَالمُنْجِـــزُونَ لِمَـــا قَـــالُوا إِذَا وَعَـــدُوا
والقَـــائِلُونَ بفصـــلِ القـــولِ إِنْ نطقـــوا عِنْـــدَ العَـــزَائِمِ وَالمُوفُـــونَ إِنْ عَهِـــدُوا
مَـــنْ تُمْـــسِ أَفْعَالُـــهُ عَـــارًا فَـــإِنَّهُمُ قـــومٌ إذا ذكـــرتْ أفعـــالهمْ حمـــدوا
إذا قـــريشٌ تســـامتْ كـــانَ بيـــتهمُ منهـــا إليـــهِ يصـــيرُ المجـــدُ والعـــددُ
لاَ يَبْلُـــغُ النَّـــاسُ مَـــا فِـــيهِمْ، إِذَا ذُكِـــرُوا، مِل المَجْدِ إِنْ أَجْحَفُوا فِي المَجْدِ أَوْ قَصَدُوا
هـــمْ خيـــرُ ســـكَّانِ هـــذي الأرضِ نعلمهـــمْ لـــوْ كـــانَ يخبـــرُ عـــنْ ســـكَّانهِ البلـــدُ
يَبْقَـى التُّقَـى وَالغِنَـى فِـي النَّـاسِ مـا عَمِـرُوا وَيُفْقَـــدَانِ جَمِيعًـــا إِنْ هُـــمُ فُقِـــدُوا

وبإنعام النظر إلى النص، نجده يضمر بداخله نسقًا مبنيًا على ثقافة الفحولة، هذا النسق يتجلَّى من خلال قصر حديث الشاعر على فئة بعينها (الأُمويون) من أجل إثبات أحقيتهم بتولِّي السُّلطة والخلافة، وأول ما يُجلي اللثام عن المضمر النسقي في هذا النص، هو ذلك الحضور المُكثَّف للصفات والمناقب التي يطغى حضورها على فضاء النص، والتي دأب الشاعر على تكريسها لبني أُميَّة وحدهم، فهم: (الأَكْرَمُونَ- المُجْتَدُونَ- المَانِعُونَ- المُنْجِزُونَ- القَائِلُونَ-

المُوفُونَ)، فَحِرْصُ الشاعر على تكريس كل هذه الصفات والمناقب إلى بني أُميَّة، إنما يخفي وراءه مضمرًا نسقيًا، مبنيًا على ثقافة الفحولة. لأن هذه المناقب والصفات التي يتغنَّى الشاعر بها في هذه الأبيات، تكون حاضرة في عالم الذات/بنو أُميَّة، غائبة في عالم الآخر/الأحزاب الأخرى المناوئة. وبمعنى آخر، إن تكريس الشاعر كل هذه الصفات للذات الأموية، يعني في الوقت ذاته سلبها ونفيها عن باقي الأحزاب السياسية المعارضة لهم، وعليه فإن الذاتَ الأموية ذاتٌ قوية، تمتلك كل الصفات الفحولة ومقوماتها، مما يجعلها مُؤهَّلة لتولِّي الخلافة، التي يجب أن تكون فيهم دون غيرهم من بقيَّة الأحزاب الأخرى، وبهذا يبدو نسق الفحولي المضمر واضحًا جليًا. ومما يعزز وجود النسق في النص أيضًا تعويل الشاعر على استخدام (واو الجماعة) مثل قوله: (ولدوا– نسبوا– منعوا– قالوا– وعدوا– نطقوا– عهدوا– حمدوا– ذكروا–قصدوا)، إضافة كما أن تكرار كلمة (قوم) ثلاث مرات، وكلمة (معشر) مرة، وكل ذلك بمثابة محاولات من الشاعر لقصر الحديث على فئة بعينها، هي وحدها صاحبة كل هذه المناقب التي تُؤهِّلُهَا لتولِّي الخلافة.

إن تضخم الذات وإلغاء الآخر تمثل تيمة من التيمات الصانعة لنسق الفحولة، ففي قول الشاعر: (همْ خيرُ سكَّانِ هذي الأرضِ)، تبلغ الأنا أعلى درجات الفوقية والتعالي المطلق، وإن كان يُعاب على شاعر في الإسلام استخدامه هذه الجملة ذات الدلالة الفئوية العرقية، لأن الأمة واحدة والإسلام واحد، والتفضيل لا يكون إلا على حساب التقوى، امتثالاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، ولكنها هيمنة النسق الثقافي وسُلطته، فللنسق "قدرة على تحويل أي خطاب، مهما كانت إنسانيته وكليته، إلى نص مجير لمصلحة النسق وحسب منطقه"[20]. كما تتجلَّى الدلالة النسقية أيضًا من قول الشاعر: (يَبْقَى التُّقَى وَالغِنَى فِي النَّاسِ ما عَمِرُوا) و (وَيُفْقَدَانِ جَمِيعًا إِنْ هُمُ فُقِدُوا)، وهذه الجمل إيماء إلى نسق الفحولة الذي يشير به الشاعر إلى بني أُميَّة، إذ إن الشاعر استطاع –بهاتين الجملتين– أن يجعل من الأُمويين مِحْوَرًا للتُّقى والغنى والوجود؛ فبوجود الأُمويين يبقى التُّقى، وتنعم الناس بالغنى والرضا، وبفقدِهم تفقد كل هذه الأشياء. وقد اختزل الشاعر فحولة بني أُميَّة في هذا البيت، فلولا وجودهم على رأس هذه الأمة لأُنتُزِعَ منها الخير، وفُقِدَ منها التُّقى، وَعَمَّ فيها الفساد، واستشرى الفقر وعدم الرضا بين الناس، وكأن صلاح الأمة متوقف فقط على وجود بني أُميَّة في سدّة الحكم، فأي فحولة إذن بعد ذلك!

وهكذا ظهر نسق الفحولة لدى شعراء السُّلطة الأموية في صورة أقرب إلى الصورة الجاهلية القديمة (فحولة الفرد)، إذ كانت الفحولة لديهم فحولة الخليفة أو الحاكم، المصطفى من الله تعالى لخلافته في الأرض، والذي يحكم بإرادة الله وباختياره تعالى لا باختيار الناس وإرادتهم. وأخذ الشعراء في رسمهم لهذا النسق –كما رأينا في النصوص السابقة– يضفون على الخلفاء طابع القداسة، ويسبغون عليهم هالة من القيم والصفات الدينية، وقد ظلت أمثال هذه الخطابات

يتردد ذكرها وتكرارها، دون نقد أو مساءلة من أحد، حتى انغرست بعد ذلك في رحم الثقافة، لتنجب تلك الآفة التي ما زالت تعاني منها معظم الشعوب العربية حتى يومنا هذا، ألا وهي آفة الاستبداد أو الطغيان، أو شخصية الطاغية التي تمخَّضت بعد ذلك عن صورة الفحل الشعري.

وتعقيبًا على ما جرى عرضه من نصوص شعرية مُؤيِّدة للحزب الأموي، يمكننا القول: إنّ هذه النصوص المُناصرة للسُلطة الأُموية، إنما يغلب عليها الزَّيف، ومخالفة الواقع والتاريخ، مقارنة بما ذكرته المصادر عن هذه السُّلطة، وما ارتكبته من جرائم ومظالم تجاه خصومها السياسيين، إذ وجدنا شعراء الحزب الأموي، يُمجّدون ذلك الحزب، ويزينون صورته، وللهدف ذاته أغفل أولئك الشعراء متعمّدين، ما ارتكبه الأُمويون من جرائم ومذابح ومظالم تجاه خصومهم. فموقف الشعراء الأُمويين من تلك الجرائم إما إغفال التعرُّض لها كُلّيَّةً، أو محاولة تزيين وتبرير بعضها فيما خلَّفوه من نتاج شعري، وقد استثمرت السُّلطة الأُموية الحاكمة هذا الشعر خير استثمار، من أجل تعميم صورة مثالية عنهم وعن حكمهم وممارساتهم الاستبدادية، بما يُشكّل ثقافةً عامةً تشيع لدى محكوميهم من أبناء المجتمع العربي آنذاك، وبما يُسْهِمُ في تثبيت أركان حكمهم، والحدِّ من محاولات الخروج عليهم.

وبهذا استطاعت هذه السُّلطة أن تصنع لنفسها من الفن الشعري، سلاحًا أو وسيلة إعلامية تخدم أهدافها السياسية والأيديولوجية، ولعلَّ اعتماد الأمويين على هذا السلاح الفكري (الشعري) إلى جانب سلاح القوة والعنف هو الذي ساعد على أن تتجاوز سلطتهم حدودها، حدود جزيرة العرب، لتشمل مناطق مختلفة في أجناسها، أكثر من غيرهم[21].

الهوامش:

1() ينظر: شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ط(20)، القاهرة، دار المعارف، (د.ت)، ص344.

2() عدي بن الرقاع: الديوان، تحقيق/ نوري حموري القيسي وحاتم صالح الضامن، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1987، ص171-172.

3() عبد الله الغذامي: النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية"، ط3، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2005، ص199.

4() المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، حقَّق نصوصه وقدَّم لها وعلَّق عليها/قاسم وهب، ج2، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1988، ص369.

5() ينظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2003، ص178.

6() نادر كاظم: تمثيلات الآخر- صورة السُّود في المتخيّل العربي الوسيط، ط1، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 2004، ص10.

7() عدي بن الرقاع، ص219-221.

8() عبد الله الغذامي، ص196.

9() ينظر: جواد علي: تاريخ العرب المفصل قبل الإسلام، ج5، ط2، بغداد، جامعة بغداد، 1993، ص223.

10() ينظر: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق/ عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة، دار المعارف، (د.ت)، مادة (ريب).

11() السيوطي، ص178.

12() نفسه، ص196.

13() ينظر: شوقي ضيف، ص340.

14() نابغة بني شيبان: الديوان، ط3، القاهرة، دار الكتب المصرية،2000، ص68-69.

15() عبد الله الغذامي، ص192-193.

16() نابغة بني شيبان، ص28.

17() ينظر: شوقي ضيف، ص341.

18()الأحوص: شعر الأحوص، جمعه وحققه/ عادل سليمان جمال، قدَّم له/ الدكتور شوقي ضيف، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي،1990، ص50.

19() نفسه، ص115.

20() نادر كاظم: تمثيلات الآخر- صورة السُّود في المتخيّل العربي الوسيط، ص10.

21() ينظر: إبراهيم محمود: الفتنة المُقدَّسة- عقلية التخاصم في الدولة العربية الإسلامية،ط1، بيروت، لبنان، رياض الريس للكتب والنشر، 1999، ص113.